كامل زهيري

وجاء اليوم السابع ..

مضت ٥٦ ساعة منذ اندلاع الحرب . ولم تنته الحرب ، كما توقع الخبير الفرنسي الجنرال بوفر ، أحد كبار الثقاة في التحليل العسكري (وقائد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٩٥٦) . ومضت ستة ايام على الحرب ـ ولم يقع المصريون في المصيدة ثم المجزرة الدموية التي أنذرت بها اذاعة اسرائيل (باللغة العربية) . ومضى أكثر من ستة ايام ـ ولم يتحقق ما أنذر به الجنرال « المعجزة » موشى دايان على شاشة التلفزيون الاسرائيلي من انه سيحطم « ضلوع المصريين » . وتبدد التهديد والوعيد الذي أقسم به الجنرال أليعازار، القائد العام الاسرائيلي . من انه سيصد ثم يحصد رقاب المصريين الذين يعبرون القناة ، كما تحصد الشبكة الكبيرة السمك الصغير . ومضت المدة التي توقعها وأعلنها معظم خبراء المخابرات الاميركية ، وجريدة نيويورك تايمز ، وعديد من جرائد أوروبا الغربية التي أصابتها المباغتة ، وعلى رأسها الفيغارو الفرنسية ، وأغلب الصحف الانكليزية فيما عدا الغارديان والتايمز ، وبدأ هؤلاء الخبراء يتساءلون في دهشة عن حقيقة ما وعد به حاييم هرتسوغ المتحدث العسكري الاسرائيلي ، ان سبب الارتباك الاسرائيلي هو عدم دعوة قوات الاحتياطي .. وان هذا الاحتياطي سوف يتجمع خلال ساعات ، ليتركز خلال ساعات ، ليضرب ضربة نهائية وقاصمة في اليوم الثاني او الثالث على الاكثر .

ووضع الخبراء آذانهم على خبر حشود الاحتياطي الاسرائيلي . وعثروا أخيرا على خبر صغير قد يكون له مغزى كبير . فقد ألغت بلدية تل ابيب عدة خطوط أوتوبيسات في العاصمة . وناشدت الاسرائيليين عدم استخدام الاوتوبيسات الباقية الا في الضرورة القصوى . ثم أذاعت الاذاعة بعد ٣٦ ساعة استئناف بعض خطوط الاوتوبيسات . وكان معنى ذلك الانتهاء من نقل حشود الاحتياطي الى جوف سيناء .

ومن خبرة دعوة الاحتياطي في حرب ٦٧ ، ومن الافواج العديدة من كتب الحرب النفسية والدعاية الاسرائيلية التي فاضت بها المطابع الانكليزية والفرنسية حول هذه الحرب ، والتي أجمعت جميعا على ان سر قوة جيش الدفاع الاسرائيلي هو ان دعوة الاحتياطي تتم خلال ساعات ، وبالطرق غير التقليدية ، وأحيانا من خلال الاذاعة باستخدام الشيفرة ، لان ذلك يتم عن طريق الاوتوبيسات العامة ، أدرك الخبراء ان الاحتياطي المنتظر قد تجمع ، وتركز ، وتحرك للضربة المضادة المميتة !

ورغم ذلك ، فان اليوم الثاني الذي بدأ فجره وصباحه ببضعة أمطار ، وبضعة سحب كثيفة (حجبت الرؤية كما تقول اسرائيل) ، ثم بزغ الفجر ، وامتلأت السماء بالشمس ، ثم مالت الى المغيب ، ولم يظهر أي اثر لتلك الوعود « التلفيزيونية » أو هذه الانذارات الاذاعية ، التي لوح بها كبار قادة اسرائيل .

فلم تحطم الجسور فوق قناة السويس ، ولم يتوقف تدفق القوات المصرية على الضفة الشرقية ، واستمرت القوات السورية تخترق ـ وتؤمن ـ الطريق الوسط داخل مرتفعات الجولان دون مبالاة أو تردد .

وألقت الاذاعة الاسرائيلية بعدة أكاذيب في اليوم الثالث ، حول عودة فتح المدارس في منطقة الجولان ، وحول عودة الفلاحين الى المنطقة ، مما اضطر اذاعة مونت كارلو التي تتابع الاحداث بنشاط ، أن تستنتج ان اخبار اسرائيل كاذبة ، لان نفس اذاعة اسرائيل قالت في نفس الوقت ان طائراتها لم تتوقف عن امطار الجولان بالغارات ، ولان اميركا طلبت تدخل مجلس الامن ، نفس اليوم !

وهكذا استمرت الاحداث الحاسمة حتى أذاعت لندن لمراسلها في القاهرة في صباح اليوم السادس انه كان ضمن بعثة من سبعة صحفيين يعبرون القناة ، ثم يعودون الى القاهرة .. ليؤكدوا ان الجسور باقية ، والحشود تتدفق ، وانه رأى جماعات من الجنود المصريين تقبل على الضفة الشرقية من قناة السويس .. وان معارك حامية ودامية قادمة قريبا لا محالة .

ورغم تسابق وتزاحم الاحداث العسكرية والسياسية ، ساعة بعد ساعة ، ورغم ان الحرب طويلة ومريرة كما يلوح من مقدماتها ، الا ان الايام الستة الاولى من الحرب الرابعة تكمل جزءا من الصورة الحافلة الدامية لاول حرب هجومية يشنها العرب منذ ربع قرن .

الايام الستة الاولى جديرة بالتأمل .

ليس فقط لانها تختلف عن الايام الستة التي حدثت في ٦٧ ، ولكن .. لانها ايضا من الناحية العسكرية والمصيرية خطيرة المغزى.

فقد بدأت هذه الايام بمفاجأة عبور القوات المصرية قناة السويس وباقتحام القوات السورية مرتفعات الجولان ، وانتهت الايام الستة

الاولى من الحرب الرابعة بخبر عسكري لا يقل أهمية ـ وهو اجراء تعديلات عسكرية هامة في القيادة العسكرية الاسرائيلية مما يؤكد ان الايام الستة الاولى من هذه الحرب تتكامل حلقاتها معا ، ويمكن اعتبارها مرحلة اولى وحاسمة في حرب الحياة او الموت التي ينخرط فيها العرب .. وكل العرب .

فبعد ٢٥ عاما من انشاء اسرائيل ، ولاول مرة ، ينخرط العرب في حرب هجومية مفاجئة .

ويمكن تصور المفاجأة ، ليس فقط ، لان القيادة العسكرية العربية الموحدة ، اختارت يوم « الغفران » الاسرائيلي ، ليكون يوم العمل العربي ، بل لان القيادة ايضا اختارت الساعة الواحدة و ٥٥ دقيقة ، وهو على غير المواعيد التقليدية للهجوم في الفجر تحت أول ضوء ، كما ان اختيار الساعة الواحدة يسمح ايضا بالقيام بعمليات العبور ، ثم تجنيد الليل لمصلحة العملية العسكرية .

وقد تباهت الحرب النفسية المعادية والتي ظلت تدك العقول والقلوب العربية ـ او تحاول ذلك ـ بأن العدو يعرف كل شيء عن أسرارنا ـ مثلا ـ بأن ابا ايبان ترجم توفيق الحكيم الى العبرية ، وان المخابرات الاسرائيلية (في كتاب عين اسرائيل) كانت تجمع كل تفاصيل الحياة اليومية لضباط وجنود مصر ، وتجمع كل عاداتهم ، متى يأكلون ، ومتى يشربون ، بل كانوا يجمعون منذ حرب ٥٦ كثيرا من التفاصيل غير المريبة من ألسنة الجنود المصريين ، وكانوا يقذفون بكل هذه التفاصيل الى العقول الالكترونية التي حددت لهم موعد الضربة المميتة للطيران المصري في حرب ١٩٦٧ وهو موعد افطار القوات الجوية في الصباح ، حين تكون أغلب الطائرات على الارض .

ومهما يكن من صدق هذه الانباء ، ومن البراعة التي قيل ان مدير المخابرات الاسرائيلية السابق ـ وهو صديق موشى دايان ـ قد أدخلها الى استخدام « قوة المعلومات » المنظمة والمكثفة والعصرية ، فان جزءا بلا شك من هذه « الصورة » التي انشأتها وروجتهااسرائيل هي ان الجيش الاسرائيلي « جيش لا يقهر » ، وانه يعتمد على المعلومات الكاملة والتامة والتفصيلية ، وانهم يحصون علينا الانفاس والسكنات والحركات ، ويستخدمونها ويوظفونها لخدمة معاركهم وقبل اتخاذ قراراتهم .

وولم يتصور أحد منهم ان العلم ليس حكرا ولا احتكارا ، ، وان الجزائريين تعلموا من الفرنسيين ، وان الهند الصينية تعلمت من فرنسا واميركا .. وان الالمان تعلموا من الفرنسيين والعكس بالعكس ، وان مونتغمري تعلم من رومل وان العلوم العسكرية ليست امتيازا لجنس او دين او لون ..

لهذا جاء اختيار الوقت والزمان مفاجأة لاسرائيل .

ولذلك لم تكن المفاجأة في توقيت العبور ، وطريقة العبور ، ولكن المفاجأة لهم ـ انها مزقت أسطورة غير علمية وغير عصرية من ان العلم احتكار على « العقل » الاسرائيلي .

ومما يؤكد ان المفاجأة كانت اكبر من مجرد اختيار تكتيكي موفق ليوم العبور والهجوم ، وساعة هذا العبور وهذا الهجوم ، ان « الجو » العام الذي عاشت عليه اسرائيل وطوال فترة اللاحرب واللاسلم يوحي بفطرسة عسكرية لم يشهدها تاريخ السجال بين البشر ، باستثناء العقلية البروسية ثم الهتلرية . فلقد كان من بين تصريحات موشى دايان التي سبقت الحرب ببضعة اسابيع « ان اسرائيل لم تكن في يوم من الايام اكثر أمنا ، ولا أشد طمأنينة منها تلك الايام » . كما قررت الحكومة الاسرائيلية تخفيض الاعتمادات العسكرية اعتبارا من السنة المالية المقبلة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، كما وضعت المخابرات الاسرائيلية تقريرها السري « الشهير » عن الشرق الاوسط عام ٢٠٠٠ ، فوضعت العقول الالكترونية والتقدم والتكنولوجيا والروح العلمية والعصرية في كفة اسرائيل ، ووضعت التقدم المتعثر ، والتمزق ، والتخلف في صف ومن نصيب وقدر العرب .

وهكذا استغلت اسرائيل التقديرات الالكترونية والعلوم الجديدة للتنبؤ بالمستقبل لتقول ان اسرائيل ستزداد تفوقا ومناعة ورسوخا ، وان العرب سيبقون غارقين في بحيرة الكلمات الراكدة ، والاغاني الخليعة ، وبلادة الاحساس بالوقت .. الى غير ذلك .

والمفاجأة من الناحية العملية ان الاسرائيليين كانوا يأخذون آلاف الاطنان من الرمال .. التي كان المصريون قد ألقوها على الضفة الشرقية من قناة السويس ، والتي كانوا يستخرجونها من جوف القناة لتوسيع مجراها ، حتى تستوعب الزيادة المنتظرة في التجارة الدولية ، لزيادة حجم الدخل من القناة ، لمواجهة الاعباء الداخلية ، فاذا بالاسرائيليين بعد الاحتلال يرفعون هذه الرمال الى ستة أمتار ، لتصبح سواتر عسكرية ..

وهكذا أصبح من مصاعب العبور ، ليس فقط اختراق القناة ، ولكن ايضا اقتحام هذا الساتر الرملي الذي وصفه الفريق سعد الدين الشاذلي بانه أكبر وأعلى عائق مائي وبري في تاريخ حروب المنطقة ، ان لم يكن في العالم (باستثناء نهر الراين في بعض المناطق) .

فاذا كانت المفاجأة قد تضاعفت باختيار الوقت ، والساعة ، واجتياز العوائق المائية والبرية ، فان المفاجأة ايضا التي تجعل كل خبراء المنطقة العسكريين يراجعون حساباتهم هو ذلك الانجاز الذي أتمته القوات المصرية حتى قضت على أسطورة أخرى .. طالما لعبت بها وسائل الاعلام الاسرائيلية ، وفروعها المنتشرة في أنحاء عديدة من العالم .

هنا المفاجأة هي : التكنولوجيا والعقل العربي .

فلم تلعب كلمة عصرية مثل هذه الكلمة في حياة المجتمع المصري ، حتى كاد المصريون جميعا يصابون بعقدة جماعية اسمها « التكنولوجيا » !

وعلى الرغم من ان المصريين منذ أيام محمد علي ، حاولوا استيعاب فنون نابليون الحربية ، حين ذهبت أول بعثة مصرية الى باريس عام ١٩٢٤ ، وتركز جهد الكثيرين على التعلم في مدرسة البولتكنيك ، وهي المدرسة التي أنشأها نابليون للضباط الذين يتعلمون الهندسة العسكرية ، وعلى الرغم من ان الجيش المصري في ذلك الوقت ـ عن طريق بعثات الكولونيل سيف الذي أشهر اسلامه وأصبح اسمه سليمان باشا الفرنساوي ـ وعن طريق البعثات الذاهبة والقادمة من باريس ، حاول هذا الجيش استيعاب علوم القرن التاسع عشر بكل تعقيداتها في ذلك الوقت ، الا ان الدول الاوروبية ضربت الجيش المصري ضربة قاصمة ونهائية في معركة نفارين البحرية عام ١٨٤٠ ، وكانت ضربة ١٨٤٠ تشبه الى حد كبير ضربة ١٩٦٧ ، لان البحرية في القرن التاسع عشر كانت مثل الطيران في القرن العشرين ... وانسدل على مصر هذا الظلام الدامس الذي انتهى الى اغلاق المدارس ، في أيام سعيد وعباس ، « حتى يتخلص المصريون من العلوم « الافرنجية » ، التي قيل انها كانت من اسباب النكسة » .

وتخلخلت الثقة وهبط الشوق الى العلوم العصرية ... وكان الانحطاط الحقيقي . وقد أدرك عبد الناصر فور الهزيمة ان الجيش الذي لا ينفتح على أحدث العلوم الحربية لا يستطيع ان يقوى على الحياة وسط هذا القرن المليء بأشرس انواع الحروب .

ومن هنا كانت الهزيمة درسا سريعا ، واليما ، ومريرا له ولنا ، وللجميع ، وكان لا بد من التصميم على التعلم والتدرب والانفتاح على العلوم العسكرية العصرية التي تتيحها لنا علاقتنا بالعلوم والعقول والخبرة التي تتوفر للسوفيات كمحاربين ، لهم خبرات هائلة في الحرب العالمية الثانية ، وقدرات معروفة في تطوير السلاح .

ومهما قيل ، أو يقال ، فان معارك الايام الستة الاولى من الحرب الرابعة اثبتت حقيقة هامة ، وان الاسلحة التي يستخدمها

العرب (وطالما دخلت هذه الاسلحة في ميادين المناظرات السياسية والعواطف الايديولوجية) انما هي أسلحة صالحة وعصرية وتستطيع ان تواجه او تنجح في مواجهة كل ما في ترسانة اسرائيل من اسلحة غربية . وان استيعاب الجندي المصري للتكنولوجيا العصرية على درجة كافية من الكفاءة .

ولعل هذه الايام الستة قد طوحت نهائيا والى الابد تجارة الهزيمة « النفسية » التي راجت بعد الهزيمة العسكرية .

لقد قيل الكثير عن « نوعية » القيادة العربية ، وراجت قصص بعضها حقيقي واليم حقا . وبعضها يقوم على الحقائق فعلا .

ولكن « تجارة » الهزيمة تشطت وتحولت الى مطبوعات ومجلات وحملات باسم الموضوعية او الغيرة على الموضوعية ، ويقودها تجار وسماسرة وانصاف متعلمين .

ولم يعان هؤلاء لا تجربة الهزيمة الاليمة ، ولا تجربة الهزيمة المفيدة .

ولم يقرأوا لا سارتر ، ولا كامو عند انهزام فرنسا ١٩٤٤ ، ولا تعاطفوا مع شعراء فلسطين وأحسوا بما في جوفهم من تجارب .

ولم يعيشوا في مصر مع الشعب الجريح حين انهزم .

كانت مصر بعد الهزيمة أشباحا لا أرواح ، سلبت الحياة من شرايينها .

ولم يكن ٩ و ١٠ يونيو الا تعبيرا عن رفض هذا « النوع » من الهزيمة . ولم يكن فقط احتجاجا على الهزيمة ، بل احتجاجا على « ظلم » الهزيمة .

ولم يكن التململ الشعبي من حالة « اللاحرب واللاسلم » الا تعبيرا خاصا وخطيرا عن هذا الرفض .

ولم تعد صيحة تحرير الارض الا تعبيرا عن رجل الشارع ، والمثقفين ، والطلبة وكل الشعب (وكثيرون لم يدركوا اعماق هذه الحركات ، وأهدافها الوطنية الصادقة) .

ولا زلت أذكر أيام هزيمة يونيو حين كنت في السويس أقابل قادة الجيش وضباطه وجنوده يعودون ، وكنت أبحث عن بصيص الامل وسط سواد الهزيمة .

كنت أرى في هذا الامل نوعا من العدل الذي يستحق البحث عنه ..

وتأكد لي ذلك عندما لقيت سعد الدين الشاذلي ، لاتلم كيف انسحب من صحراء سيناء .

فلقد انسحب ـ بطريقة المروحة ـ التي تتسع ثم تنضم .. بطريقة تقلل الخسائر بأقصى درجة ممكنة .

وليس هنا مجال الافاضة عن دوره ـ أو الحديث عن دور غيره من القادة العسكريين ـ ولكنني لا زلت أذكر اليوم الثاني الذي قضيته مع الفريق أول سعد الدين الشاذلي ـ وكان لا يزال عميدا ـ في مدينة حرض باليمن الشمالية عام ١٩٦٦ .

لقد قضيت يوما كاملا وليلة كاملة في موقع قيادته .

وكانت المنطقة صحراوية .

كان الاعصار يرتفع أمامنا في أعلى منطقة ، ويلتف ، ثم يقتلع أي شيء ، وكان يرتفع في هذا الهجير الى مستوى عال جدا ، حتى يتحول التراب الى ثلج من شدة الارتفاع ...

وقال لي سعد الدين الشاذلي : ان هذه المنطقة هي التي زحف فيها الحبش على العرب ، وهي التي نزلت فيها آية القرآن الكريم حول الطير الابابيل التي تلقي حجارة السجيل .

وكان من الطبيعي ان نتحدث عن الجو والانواء والعواصف ، لان كل شيء كان مغطى بالتراب والعواصف الرملية .

فقال سعد الدين الشاذلي :

ـ لقد تعودت عليها من صباي .

لانني كنت أعشق الطيران الشراعي ، وكنت أمارسه منذ صباي.

وقال لي شارحا ان من يفهم « الجو » ، يدرك انه مثل الموج.. اذا فهمته لا تغرق فيه .

وكان سعد الدين الشاذلي شابا في الاربعين . لا يبدو عليه السن . فقد صحوت اليوم التالي لاراه يقوم بتدريبات الصباح مع جنوده ..

وليس هذا مجال التفاصيل ، ولا كشف دوره ـ او دور غيره ـ في الدفاع عن شواطىء البحر الاحمر ، حين كانت اسرائيل « تعربد » داخل أعماق الاجواء المصرية .

انما رصدت ان اذكر « نوعية » قيادة عسكرية ، تتسم بالصبر والدقة والعلم ... وحب وفن الدفاع عن الوطن .

وفي أيام الهزيمة ، وأعقابها ، وحين اشتدت الحملة النفسية ووصلت الى قمتها ، وكانت اسرائيل تدخل بطائراتها ، وتهبط الى المستوى القريب من أسطح المنازل لتمزيق الجو ، وتحطيم زجاج النوافذ ، كان انور السادات نائبا للرئيس عبد الناصر .

وحمل أنور السادات معه مجموعة من الصحف والمقالات الاجنبية التي تحاول دك الثقة الداخلية . وكان الاجتماع في قاعة الاتحاد الاشتراكي العربي بالقاهرة .

وروى السادات قصة الجندي المصري الذي احترق وهو يقبض على مدفعه .. أثناء احدى الغارات الاسرائيلية « السيكولوجية » .

وقال السادات : هذا هو الجندي المصري .. الذي تحول الى فحم ، ولم يترك مدفعه .

والغريب انني تتبعت عددا من خطابات أنور السادات ، فوجدته كثيرا ما يذكر هذا المثل .. الذي يدل على ايمانه بنوعية الجندي المصري .

واذا كان شوفيل مراسل « الفيغارو » قد كتب عن الشاذلي يقول ان سياسته هي ادخال روح جنود المظلات في الجيش المصري كله ، واذا كانت هذه القصص وغيرها تدل على ان الفترة الماضية لم تضع هباء ، ولا سدى ، فيبدو ـ ولحسن الحظ ـ ان اسرائيل ظلت متمسكة بأسطورة « الجيش الذي لا يقهر » او الجيش الذي قضى على عدوه في أسرع معركة حدثت في القرن العشرين .

ولحسن الحظ ، ان القيادة الاسرائيلية ، تظن انها هي وحدها التي تتمتع بحق العلم والتكنولوجيا والقدرة عليها ، ومن حسن الحظ ان هزيمة يونيو كما كانت هزيمة مريرة ، كانت مفيدة .

وأعظم الفوائد ـ علاوة على الثقة بالعلم ، والتكنولوجيا ـ ان خطة اميركا لعزل مصر عن العرب قد سقطت مع أول قذيفة ، وأول جندي مصري عبر قناة السويس .

* * *

ويبدو ان المرحلة القادمة مرحلة حاسمة جدا ودقيقة جدا . فلا تزال قوات هائلة من الطرفين لم تنخرط بعد في المعركة ودخول القوات العراقية والجزائرية وبقية القوات العربية سيعطي بعدا بشريا جديدا للمعركة . وقد تعلمنا من دروس الماضي ان نبحث عن الامل وسط اليأس ، وان نحاسب ونزن ونحذر من التفاؤل أو المبالغة .

فلا تزال في الحرب جولات ... عسكرية ، وبترولية ، ودولية. لا زالت الحرب دائرة .

واذا كنا قد كسبنا معركة .. فالقضية هي ان نكسب الحرب .

البلاغ
١٥ تشرين الاول